التجسس والجواسيس

صفحة مطوية من مقدمات الحرب الكبرى

لوليم لوكيو

[ولد وليم لوكيو في لندن سنة ١٨٦٤ من اب فرنسيّ وامّ انكليزية وتوفي في السنة الماضية . قضى معظم حياته في مزاولة الصحافة وكتابة القصص . (لهُ ما ينيف على ١٣٠ قصة ومنها قصة « رسوتين الراهب المحتال » التي ترجمها كاتب هذه السطور وعنيت بطبعها مكتبة العرب) وكان جواب آفاق وعبر اسفار كانهُ هو المعني بقول ابن زريق البغداديّ :—

« ما آب من سفر الاّ وأزعجهُ عزم الى سفر بالرغم يُزمعهُ
كأنما هو في حلّ ومرتحل موكّلٌ بفضاء الله يذرعهُ »

فقد شخص الى فرنسا والمانيا وايطاليا ماشياً وسافر الى شرق اوربا وشمال افريقية وجوّل في روسيا وسيبيريا وزار مصر والسودان. وفي اول عهده بالصحافة تعيّن مكاتباً خارجيًّا مخصوصاً لجريدة التيمس . ومكاتباً لجريدة الديلي ميل في عدة عواصم ومكاتباً حربيًّا لها في حرب البلقان . وهو مشهور لدى قرّاء اللغة الانكليزية . ومعروف بانهُ أوتي علاوة على ذلك قوة خارقة في الزكن والفراسة وتسقّط الاخبار وكشف الخفيّ المستور وانتزاع الاسرار من اعماق الصدور . فاحاط علماً بما عند الدول من المنابآت (المخابرات) السرية ، على رغم مبالغتها في التكتم . وكثيراً ما كانت حكومة انكلترة تستشيرهُ في هذه الامور . ولشدة تضلّعهِ من معرفة هذه الخفايا كان اول من سبق فانذر بوقوع الحرب الكبرى كما يتضح من مقالتهِ الآتية]

***

أدّعي ولا يصعب عليّ تأييد دعواي بانّي اوّل من انذر بريطانيا العظمى بانّ امبراطور المانيا يكيد لها في الخفاء ليصليها حرباً زبوناً تشيب لهولها الاطفال

فمنذ سنة ١٩٠٥ علمتُ ان ادارة التجسّس في المانيا بثّت في انكلترة ومستعمراتها جيشاً من العيون والأرصاد. وهذا السرّ وقفتُ عليهِ من صديق لي في برلين كان حينئذٍ

مساعداً لمدير مكتب التجسس القيصري. وكان قد تزوج سيدة انكليزية ظن جميع معارفه واصدقائه انها المانية

ولما رجعتُ من المانيا الى لندن شرعتُ من فوري في تنبيه الرأي العامّ الى هذا الخطر العظيم. ولكن لسوء الحظ ذهب انذاري صرخةً في واد ونفخةً في رماد. جواسيس! ولماذا تروم المانيا تجسس أخبارنا؟ أو ليس معها على ما يرام من حيث الرقباء والوثائق؟ اولم يصرّح قيصرها للورد هالدن بان السلم ضالتهُ المنشودة؟ لا. ليس لدين الرقباء والجواسيس من اثر الا في مخيلة وليم لوكو القصصيّ!

بهذه العبارات وامثالها قابل الجمهور إنذاري وضربوا به عرض الحائط. والصحف كلها رفضت مقالاتي التي طلبت نشرها. وكان عذر أصحابها انهم لا يرومون إلقاء الذعر في قلوب القرّاء بلا اقلّ مسوّغ

فذهبتُ الى صديقي اللورد روبرتس واطلعتهُ على ما علمتهُ. فاغارني اذناً صاغية وقال لي انهُ مثلي موجس خوفاً شديداً من مقاصد المانيا. ثم جمعتهُ باللورد نورثكلف وبحثنا نحن الثلاثة بحثاً مليًّا في هذا الخطر الواقف لنا بالمرصاد

وأفضيت بسرّي الى الكولونل لوكود العضو في مجلس النواب — وهو الآن اللورد لبورن. ولما اقتنع بصحة كلامي عرض الامر على المجلس فقوبل كلامهُ بالهزء والازدراء. وقيل لهُ ان الجواسيس من مخترعات الاوهام المنيخة على صدر وليم لوكو!

ولقيت البرنس لويس اوف باتنبرغ واللورد تشارلس برسفورد واطلعتهما على ما عندي من الادلة التي انفقت من مالي على جمعها. فوافقاني كلاهما على وجود خطر كبير ينذر بشرّ مستطير

وكانت ادارة المنابآت [قلم المخابرات] في كلٍّ من وزارتي البحرية والحربية على غير ما يرام من الضبط والاحكام. وادارة سكتلند يارد [البوليس السريّ] قاصرة اهتمامها على الارلنديين الثائرين والسياسيين المشاغبين، وناظرة الى مسألة الجواسيس بعين الاحتقار والاستخفاف. وعلى هذا المنوال كانت اعظم امبراطورية في العالم تملي ارتشاف شراب مسكن، تديرهُ عليها الصحافة المصافية للالمانيا وتحكم عليّ وعلى اللورد روبرتس واللورد نورثكلف بالتهِ والوسوسة

فزرت صديقي القديم المستر طمسن صاحب جريدة «دندي كورير» وعدة جرائد أخرى واسعة الانتشار في سكوتلند وانكلترة وبحث لهُ بمكتوبات صدري. وبعد البحث

والتأمل ارتأى ان انشر في هذا الموضوع مقالات متوالية مبنيَّة على ما عندي من الحقائق المؤيدة بالادلة والبراهين . فدبجتُ اول قصة كُتِبَتْ عن الجواسيس بعنوان « جواسيس القيصر » . ونشرها المستر طمسن في « الاخبار الاسبوعية » التي هي من اوسع الصحف انتشاراً . ثم طبعت بعد ذلك على حدة . ولما سقط الغشاء عن عيون الجمهور شرع كثيرون من الكُتَّاب يقتدون بي وينشرون مقالات بمعنى ما كتبتهُ فاصابوا بذلك ربحاً جزيلاً

ولكن الحكومة ظلت غير راضية عن اقدامي على هذا العمل ولم تستصوب اطلاع الشعب على حقيقة الواقع . فان اصابع التجسس في المانيا كانت تمتدُّ الى كلّ جهة من جهات بريطانيا العظمى تنشب فيها اظفارها وتتسقَّط أخبارها وتمزّق عن اسرارها أستارها وكنت قد اصبحت معروفاً عندها ومستهدفاً لخطر ايقاعها بي لدى سنوح اول فرصة

زرتُ بعد ذلك اللورد روبرتس وقلتُ لهُ :

« لقد بذلتُ كل ما استطيعهُ ولكنَّ الذين يهمهم الامر لا يبرحون يعيرون كلامي اذناً صماء وينظرون الى إنذاري بعين الاستهزاء وقد أسرفوا في تهكمهم عليَّ وكدتُ أعد مجنوناً وفي هذا ما فيهِ من العبث بشهرتي ككاتب . واني مضطرّ كثيري من الكتبة الى التماس عيشي من شقّ القصبة ! » فمدَّ يدهُ نحوي واجابني بلهجة الاب الحنون

« ياعزيزي لوكو . اني أنا ايضاً معدود مجنوناً لاني بعد خدمة اربعين سنة في الهند جئت الى لندن وتجاسرت ان اقول لانكلترة انها غير مستعدة للحرب . ولست اجهل خوفك على ضياع شهرتك ان واصلت المسير في هذا السبيل . ولكن قف بجانبي — اتبعني فانا وتشارلس رسفورد نتجدك من كل وجه . وسنحاول إقناع الذين لا يهمهم سوى جمع المال بالخطر العظيم المحدق بهم »

فقبضتُ يدهُ الممدودة وهززتها موافقاً على ما قالهُ لي

ثم عين اللورد روبرتس قائداً عاماً للجيش البريطاني . وكان اول شيء فعله أنهُ أنشأ لجنة شحنة او شرطة (بوليس) سريَّة ، مستقلّة استقلالاً تاماً عن ادارة سكتلند يارد الرسمية . وقد تألَّف اعضاؤها بالتطوّع الاختياري . وكنتُ انا واحداً منهم . هؤلاء الاعضاء تطوّعوا لخدمة الوطن وتبرّع كلٌّ منهم بالانفاق على نفسهِ من مالهِ وشرعوا يطوفون في المانيا وغيرها يلتقطون من الاخبار ما تنتفع بهِ حكومة بلادهم عند الحاجة . اما انا فتعين لي التجول في ايطاليا والشرق الادنى . ثم وسعتُ نطاق اسفاري فشمل روسيا والمانيا والنمسا . وكنتُ من وقتٍ الى آخر اعود الى لندن واطلع اللورد روبرتس

على ما عندي من الانباء السرية فيزداد اقتناعاً بان امبراطور المانيا يتأهب للحرب تأهباً بطيئاً ولكنهُ ثابت اكيد

وعلى حين غفلة جاءتني بطاقة ، بطريقة خفية ، من صديق الالمانيين — يسألني فيها هل يمكنني ان اوافيهُ الى سويسرى لانهُ يروم ان يجدّد علاقات المعرفة والصداقة وعين لي وقت وجوده في زوريخ . فعلمت انهُ يبتغي ان يفضي اليّ بامر ذي شأن . ومن فوري ذهبت الى فندق دولدر في زوريخ حيث لقيتهُ وتسلمت منهُ صكاً رحبت به الى لندن فأثارت محتوياتهُ اهتماماً عظيماً في بعض الاندية والمجالس . لانهُ تضمّن تفصيلاً مدققاً لوقائع مجلس سرّيّ انعقد منذ شهر في بوتسدام برآسة الامبراطور وحضور اخيهِ الامير هنري ونواب الامبراطورية الالمانية وقادة الجيش والبحرية وبينهم صديقي المشار اليهِ

في هذا المجلس السريّ بدا القيصر في حلتهِ البحريّة الرسميّة مصفرّ الوجه ثابت العزم منهج الاعصاب والقى خطبة استغرقت ساعتين او اكثر ، موضحاً كلامهُ بكثير من الخرائط والرسوم والاشكال الهندسية ونماذج الاسطول الهوائيّ والمدافع الضخمة البعيدة المرمى وغيرها مما يراد استخدامهُ في الحرب القادمة

وكان صوتهُ بادىء ذي بدء خافتاً خفيًّا وعلى وجههِ سمات الشحوب والكرب ولكن كلماتهِ كانت واضحة فلم يصعب استيعابها واستيعاب معناها وفيها جاهر علانية بانهُ عقد عزمهُ على خوض غمار الوغى

خطبة الامبراطور غليوم

قال الامبراطور :

« دعوتكم الليلة الى هذا الاجتماع اطاعة للامر الالهي فان الله القادر على كل شيء كان على الدوام حليفاً كبيراً ونصيراً قديراً ليت هوهنزلرن . ومنهُ عزّ وجلّ استمدّ كما استمدّ اسلافي العظام — الالهام والارشاد عند استحكام حلقات الازمات والشدائد. وبعد ما قضيت عدة ساعات في الضراعة والابتهال اشرق عليّ نور من السماء ساطع الضياء لم يبقِ حولي اثراً للظلماء . وانتم يا مستشاريّ واصدقائي ، الذين لا يخفى عليهم شيء من اموري ، تعلمون اني منذ تبوّأت العرش بذلت جهدي في توطيد السلام العامّ وتوثيق عرى الصداقة مع جميع امم العالم . ولم اجهل ان الخطة التي انتهجتها لم تقع دائماً عندكم موقع الرضى والاستحسان. وطالما وددتم لو اني استخدم كفاً مصفحة بالحديد بدل القفاز الحريري الذي اخترتُ استعمالهُ في اثناء المفاوضات الجارية بيني وبين

بعض الامم الاخرى . وكنتُ ارتمض جدّ الارتماض عندما ارى مقاصدي الحسنى يُساء فهمها وتحمل على غير محملها وينعكس الغرض المراد منها . لكنني تلقيت سهام الانتقادات التي صوّبها الجمهور اليّ بدرع الصبر وسعة الصدر ، لتقيني الاكيدة بأني مسؤول عن اعمالي لله فقط . ولم انفكّ مواظباً على اتمام ما اعدّهُ واجباً مقدساً عليّ للوطن المحبوب . ولكوني ملء الإخلاص احتفظ بتقاليد بروسيا وبيت هوهنزلرن ارى ان اعظم ضمان للسلم انما هو إعداد جيش كبير واسطول قويّ . ولشدّة رغبتنا في تأييد السلام أضطررنا ان نجاري جيراننا في المثابرة على زيادة التسليح حتى بلغنا اقصى حدوده او كدنا نبلغها

« وبتنا الآن واقفين في اشدّ ازمة عرضت لنا في تاريخ امبراطوريتنا الجديدة . فان ثقل المكوس والضرائب امسى فادحاً يهظ الظهور وغلاء نفقات المعيشة بات فاحشاً يحرج الصدور ويستفزّ العامة على المناداة بالويل والثبور . وقد يتسع نطاق التبرم من سوء الحالة الحاضرة حتى يتناول اهل الطبقتين الوسطى والعليا الذين هم عماد الدولة وحجر زاويتها . وشرٌّ من هذا وذاك توافر الادلة على تفشي داء التذمر بين الجيوش والسعي في تأليف جمعية سرية لبثّ روح كراهة التجنيد بين العساكر والبحارة وحملهم على التمرّد والعصيان

« وهذا السعي غير محصور في بلادنا بل لهُ اثر كبير في اكثر البلدان الاوربية . فكيف يمكن تدارك الخطب قبل تفاقمه واستفحاله ؟ والجواب عن هذا السؤال كان موضوع عنايتي واهتمامي في الاشهر الاخيرة . فالموقف حرج جدًّا ولكن لا يليق بنا ان نجعل للجزع واليأس سبيلاً الى قلوبنا . لان الله خليقنا الاعظم قد جعل في أيدينا وسائل انقاذ الامبراطورية من الاخطار التي تهدّدها

« ومرادي بوسائل الانقاذ ذلك الاختراع العظيم الذي وفّق الله الكونت تسبلن اليه لوقاية وطننا المحبوب والدفاع عنهُ . اجل ! بهذا الاختراع مهد الله لي السبيل لكي اتمثل المانيا من وهدة الخطر واقودها الى ساحة الفوز والظفر ، مصداقاً لقول شاعرنا : — المانيا المانيا فوق الجميع ! . نعم ايها السادة الاجلاء . المانيا فوق كل شيء في العالم واعظم قوة على الارض في السلم والحرب

« هذا حكمي الذي لا سبيل الى نقضه . ونحن ، بفضل مناطدنا (بلوناتنا) وطياراتنا ومدافعنا البعيدة المرمى ، اصحاب الحول والطول وفي استطاعتنا ان نصلي اعداءنا حرباً عواناً تشيب الولدان وتقشعرّ هولها الابدان

« وسنشرع في شنّ هذه الغارة القهقرى عندما احرز اسطولاً كبيراً من مناطدتسبلن

حينئذٍ نحمل به على اساطيل انكلترة وندمّرها فيخلو لنا الجوّ لنقل جيوشنا الى الدواخل البريطانية والزحف بها الى لندن والاستيلاء على اكبر عواصم العالم

« ولعلكم ترومون ان تعرفوا كيف يتمّ شهر الحرب او بماذا تتذرّع لشبّ نارها وخوض غمارها فاقول انهُ لن يصعب علينا اختلاق الاسباب او تحملها لان لي جيشاً لجباً من الجواسيس المتفرقين تحت كل كوكب — في بريطانيا العظمى وفرنسا واميركا الشمالية والجنوبية وسائر انحاء العالم ، حيث لالمانيا مصالح تتعرّض ، بسعي اولئك الجواسيس ، للاصطدام والاحتكاك بدولة اخرى . ومنذ وقت غير بعيد اصدرتُ بعض الاوامر السرية بهذا الصدد ليتمّ كلّ شيء طبق المراد ! »

فعرضتُ هذا الصكّ على اللورد روبرتس واريتهُ للورد تشارلس برسفورد واللورد نورتكليف واميرالبحر ه . و . « ولكن » وبعض كبار القادة والضباط . ولما عرض على مجلس الوزراء نظروا اليهِ بعين الازدراء . ولكن بعد ستّ سنوات نفّذ القيصر هذا البرنامج بحرفهِ وكاد يدرك الغرض الذي وضعهُ لاجلهِ

ولما اعطاني صديقي الالماني صورة خطبة القيصر هذه قال لي : —

« ان الحرب واقعة لا محالة وهي قاب قوسين او ادنى . اما انا فمع كوني المانيًا أكره الحرب لاعتقادي انها مجلبة الخراب والدمار على الغالب والمغلوب على حدّ سواء . فعلى اصدقائك والحالة هذه ان يكونوا على حذر ويعلموا أن وراء الاكمة ما وراءها . وبناء عليهِ اعطيتك صورة الخطبة وهي طبق الاصل في كل كلة نطق بها صاحب الجلالة . ولي الثقة التامة بان اسمي يظلّ محفوظاً عندك في طيّ الكتمان كواحد من الاسرار التي لا يباح بها لانسان »

وعلى هذا عاهدتهُ وظل سرُّ اسمهِ مودعاً اعماق صدري

قلتُ ان هذه الخطبة ، لما جئت بصورتها إلى لندن احدثت اهتماماً عظيماً عند الذين اطلعوا عليها . ولا يخفى ان بعض الوزراء شكوا في صحتها . وبذل جميع الموظفين في سكتلنديارد (البوليس السري) جهدهم في تفنيدها

واخبرتُ عدداً ليس بقليل من الذين يعنون بطبع الكتب ونشرها اني عازم على تأليف كتاب اميط فيهِ حجاب الخفاء عن مقاصد القيصر الحربية . فثبّطوا كلهم عزمي قائلين ان كتاباً كهذا لن يلقى اقلّ رواج عند القرّاء

وبطريقة لا اعلمها تمكّنت الحكومة الالمانية من معرفة حصولي على صورة خطبة

القيصر السرية ونشأ عن ذلك اغرب حادثة . ففي شهر سبتمبر ١٩٠٩ عزمت على نشر كتاب أُبيّن فيه بالادلة القاطعة تعمد المانيا اضرام نار الحرب . فزرت المستر ناش في مكتبه وعرضتُ عليه فصول الكتاب الاولية ومعها صورة الخطبة السرية . وبحضوري وضعها كلها في درج مائدة الكتاب واقفلهُ . وبعد يومين فتح الدرج واذا بالفصول وصورة الخطبة مسروقة منهُ . وهذه السرقة لم يقدم عليها الا جواسيس المانيا في لندن . وبعد بضعة ايام علمت ان هذه الفصول وصورة الخطبة باتت في سجلات إدارة الشحنة السرية في برلين ولحسن الحظ كان عندي صورة اخرى من الخطبة لم انشرها الا بعد نشوب الحرب

وحدث بعد ذلك اني زرتُ اللورد روبرتس واليأس مالئ قلبي واخبرتهُ بانَّ جميع مساعيَّ ذهبت ادراج الرياح ولم تقترن قط بشيء من النجاح . ومعظم الذين كلمتهم في هذا الموضوع الخطير سخروا مني وعدُّوني رجلاً مصاباً بعقله . وقلتُ لهُ اني قصصيٌّ . فسألتصر على تعاطي مهنتي هذه واهتم بكتابة القصص لا غير

فقال لي الفيلد مارشال :

« اذا كان الناس يفضلون مطالعة القصص الوهمية الخرافية على مطالعة الاشياء الحقيقية فلماذا لا تدبج في القصة الموضوعة وصف ما يحدث اذا شبت حرب كبيرة وهاجم الاعداء بريطانيا العظمى ؟ »

فاجبتهُ اني لستُ رجلاً عسكريًّا واخاف ان ارتكب في قصة كهذه كثيراً من الغلطات الفنية فقال :

« اني مثلك يهمني جدًّا ان احمي ذمار الوطن واذود عن سلامته . فإن بنيت قصتك على هذا الموضوع فانا ارسم لك خطة الهجوم والدفاع وما يتعلق بهما »

ولما سألتهُ : — « من يتفق على طبعها ؟ » اجاب : —

« عليك باللورد نورثكلف »

فذهبت اليه في اليوم التالي وعرضت عليه رأي اللورد روبرتس فاستصوبهُ وفوّض اليَّ تأليف هذه القصة ليدرجها في جريدته « الديلي ميل » واعداً بدفع النفقات ومجازاة كبيرة لي

ومن فوري شمرت عن ساعد الجد والاجتهاد وقضيت اربعة اشهر في التأهب والاستعداد لهذا الامر الخطير . فطفت في سواحل انكلترة وشواطىء البحار وساعدة الفيلد مارشال روبرتس وغيره من كبار القادة والضباط وضمت ما تمس الحاجة اليه من

الخرائط والرسوم والاشكال وانفقت في هذا السبيل اربعة آلاف جنيه دفعها اللورد نورثكليف بملء الارتياح . ثم شرعت في تأليف القصة

وكان تأليفها عملاً شاقاً الى الغاية . استغرق وقتاً طويلاً وكلفني عرق القربة . وعلاوة على مشقة التأليف ووعورة مسلكه اعترضتني عقبة كؤود لم يدر قط في خلدي انها تتصدى لي

فبعد ما قضيت سنة في تأليفها وطالعها اللورد روبرتس بتدبر وتروّ لازيد عليها وأصلح ما عز عليه فيها من الغلطات ، ظهرت في صباح يوم — سوف يبقى مأثوراً مذكوراً — صحف التيمس والديلي تلغراف والديلي ميل والمورنن بوست والديلي كرونيكل وكثير من صحف الاقاليم والمديريات وفي الصفحة الاولى من كلّ منها خريطة انكلترة ، مدلولاً فيها على الاماكن المعرضة لغزو الجيش الالماني وغارته عليها والاشارة الى قصة « الغزوة » التي ستنشر تباعاً في جريدة الديلي ميل ابتداء من صباح اليوم التالي فختمت وزارة كمبل بانرمان بوجوب تفنيد كلّ ما اقولهُ في هذه القصة وتعريضه للهزء والازدراء

وبدأت حملة الوزارة عليّ بعد ظهر ذلك اليوم حين وجّه بعضهم سؤالاً الى رئيسها في مجلس النواب عن اعلانات الصحف السابق ذكرها . فاجاب السر هـ . كمبل بانرمان عن السؤال بانهُ رأى هذه الاعلانات ورماني بالتهه والوسوسة ، عادًّا عملي مدعاة الضرر وعجلة الفساد وانهُ يراد به هياج الخواطر في الخارج وازعاج البسطاء والجهلاء في الداخل

فكتبت اليهِ أسألهُ كيف ساغ لهُ ان ينتقد كتاباً لم يقرأهُ قط وباي حقّ يعدّ عامّة الشعب البريطاني الذين انتخبوه اجهل من جيرانهم في عبر المانش . وكان مرادي بهذا السؤال ان اسومهُ ولو شيئاً قليلاً من الحيرة والارتباك . ولكن خدع السياسة وشعوذاتها بحر لا قرار لهُ . فقد بعث اليّ في اليوم التالي مع رسول مخصوص ببطاقة بخط يده يعتذر عمّا بدر منهُ امس في مجلس النواب ، بقوله انهُ اراد بالجهلاء اجهل طبقة بين العامّة ويأمل اني لا أجعل كل كلمة تضطرهُ السياسة الى قولها على محمل التعريض بي والاساءة اليّ وطلب أن ازورهُ في دوننغ ستريت في اول فرصة تسنح لي ليزيدني ايضاحاً !

وفي صباح اليوم التالي صدرت جريدة الديلي ميل وفيها الفصل الاول من قصة « الغزوة » . فاقبل القراء على مطالعته اقبالاً يفوق الوصف وجميع الذين لقيتهم في الاندية او زرتهم في بيوتهم كانوا يتسابقون الى اطرائي وتهنئتي بالنجاح الباهر الذي احرزتهُ ملقبين اياي بالرجل الذي لم يخش في قول الحق لومة لائم

(البقية في الجزء التالي) ترجمة : اسعد خليل داغر